السيرة الذاتية العربية بين فعل الكتابة وفعل إدراك الذات

أ- حسين ترّوش
جامعة سطيف 2

الملخص:

إن تنوع الأشكال الأدبية وتعدد طرائق الخطاب السردي أدى إلى تنوع الموضوعات المطروحة وتشعبها كتشعب الحياة ذاتها، ولكن هذه الأنواع الأدبية على اختلاف طرائقها تجتمع في بوتقة واحدة، فكلها تسعى إلى فهم الذات ودورها في الحياة وذلك من خلال فعل الكتابة الذي يعتبر مترجما للأفكار والمشاعر، والنص الجميل الخالد هو الذي استطاع أن يصور هذه العلاقة الجدلية بين (الذات والكتابة)

ولعل فعل الكتابة الذي حقق ذلك بجدارة هو السيرة الذاتية فارتباطها بالذات جلي من خلال الأنا الساردة التي تمثل الأنا الفاعلة في النص. فالذات – إذن - هي المدار الشمسي الذي تسبح في فلكه كل جزئيات السيرة الذاتية، وهي الجذر الموضوعاتي الذي تنمو وتتفرع عنه موضوعات متعددة تخرج عن نطاق تصوير الذات إلى تصوير علاقة الذات بالوجود

RESUME:

La diversité des formes littéraires et la multiplicité des méthodes de discours narratif conduit à une diversité des sujets qui représente la complexité de la vie elle-même, mais ces genres littéraires avec leurs modalités différentes vivent dans un même pot, elles cherchent tous à comprendre le(MOI) et son rôle dans la vie et à travers l'acte d'écrire, qui est un traducteur d'idées et de sentiments, et le texte immortelle qui a su dépeindre cette relation dialectique entre(le soi-même et l'écriture)

Et je croix que l'acte d'écrire qui a bien traduit cette relation c'est L'AUTO-BIOGRAPHIE parce que la présence de l'auteure qui est lui-même le narrateur est très claire dans le texte et parce que le MOI est l'écliptique, que nage les particules de L'AUTO-BIOGRAPHIE au tour de son l'orbite, et elle est la racine qui croissent et se ramifient sur divers sujets en dehors du champ de l'auto-photographie pour représenter la relation de soi avec l'existence

مقدمة:

السيرة الذاتية بمفهومها المتعارف عليه ترقى لأن تكون فنا من فنون الخطاب المعاصرة له خصوصياته، سواء من حيث تقنيات الكتابة، أو من حيث طرائق الطرح، أو من حيث الموضوعات التي تتناولها.

ولعل ما يميز السيرة الذاتية العربية عن نظيرتها الغربية هو أن أغلب كتابها هم من كبار الأدباء والشعراء والمفكّرين الذين رأوا الحياة بعين الفرد العادي وبعين المبدع الخلاّق، بعين الفيلسوف المفكر والفنّان الحلم، بعين السياسي الفاعل والعامل البناء، فكانت حياتهم نضالا فكريا وسياسيا وعلميا وعمليا جعل من سير حياتهم مناهج ينبغي على الناشئة أن يتمثلوا بها في حياتهم، وأن يأخذوا منها العبر والدروس.

والسّيرة الذّاتيّة تُكتب مرّة واحدة لا تتكرّر ولذلك يكون النصّ السير ذاتي عند صاحبه الّذي كتبه وكان في الوقت نفسه موضوعا له نصّا مهمّا في حياته الأدبيّة والاجتماعيّة، بوساطته يتوّج تجربة حياة، وهو يعلم أنّه لن يعود إليها مرّة أخرى. لأنّ الحياة قد لا تسعفه بالوقت الكافي ليعيد كتابة سيرة حياته الشّخصيّة وإن أسعفته فإنّ ما أراد أن يقوله قد قاله.

والسيرة الذاتية تجربة إبداعية فريدة، ذلك أنّ المبدع في هذه الوضعيّة يتعرّى أمام نفسه وأمام الآخرين ليقول ما كان يخفيه في صدره زمنا طويلا.

إنّ فعل الكتابة في هذا الجنس الأدبي هو فعل استحضار للذّكريات واستعادة لماض بعيد وهو فعل عسير ولكنّه يبعث ضربا من اللذّة الفنيّة لا يتوفّر في مجالات إبداعيّة أخرى، في هذا الجنس الأدبي يعيش المؤلّف لحظتين زمنيتين، لحظة الحاضر بكل تفاعلاته، ولحظة الماضي بكل ذكرياته، لحظة الشيخوخة والعجز واقتراب الرحيل، ولحظة الفتوة والشباب الغائبين، ولكن في كلا اللحظتين انفعال نفسي يربط بين الكاتب والقاريء.

وانطلاقا من هذا التفاعل بين الذات والزمن والقاريء تنشأ السيرة الذاتية التي لا يمكن أن تتوقف عند مجرد سرد لأحداث الماضي أو استحضار لذكريات الطفولة والشباب وذكريات العمر، بل هي بحث عن معنى جديد لوجود الكاتب من خلال التفاعل بين الذات والكتابة.

وهذا التفاعل المتبادل بين هذه الأطراف المتعددة (الذات/الزمن/ الكتابة/القاريء) يعطي السيرة الذاتية مجالا واسعا للتعبير تتعدد فيه الموضوعات وتتنوع فتجعل من السيرة الذاتية نصا مفتوحا على القراءة والتأويل.

والسير الذاتية التي اتخذتها هذه الدراسة مجالا للتحليل هي :

* **الأيام لطه حسين**:كانت في البداية مجموعة مقالات نشرت في مجلة الهلال بين عامي 1926 و1927، ثم جمعت ونشرت في الجزء الأول عام 1929 صور فيه صباه حتى سن الثالثة عشرة، ثم نشر الجزء الثاني في العام نفسه صور فيه صدر شبابه وحياته في الربع مع طلاب الأزهر وشيوخه. وقد كتب طه حسين مذكراته في عشرين مقالا في جريدة آخر ساعة وجمعت ونشرت عام 1967.

* **سبعون لميخائيل نعيمة**: وتحمل سيرة السنوات السبعين التي عاشها منذ 1889 إلى غاية 1959 في ثلاثة أجزاء تمثل مراحل حياته، تمتد المرحلة الأولى بين(1889- 1911) والثانية بين (1911-1932) والثالثة بين(1932-1959).

* **خارج المكان لإدوارد سعيد**: وهي سيرة حياة مليئة بالمتناقضات، كتبها صاحبها كما يقول في حياض الموت بعد أن أصيب بمرض عضال لا شفاء منه، وقد نشرت باللغة الإنجليزية، ثم العربية.

* **الخبز الحافي لمحمد شكري**: عبرت هذه السيرة الذاتية الروائية كما سماها صاحبها عن الوضعية الاجتماعية الصعبة التي يعيشها المجتمع المغربي وإدراك الكاتب لذاته منذ الطفولة وسط هذه الوضعية.

وهذه النصوص مثلت فن السيرة الذاتية العربية عبر مسيرتها الطويلة بداية بكتاب"الأيام"لطه حسين ومرورا بمرحلة المهجر مع إيليا أبي ماضي، وصولا إلى الأدب الفلسطيني في المنفى مع إدوارد سعيد، وانتهاء بالخبز الحافي وتأثير الفقر للمغربي محمد شكري.

هذه المجالات الأربع التي أثّرت في نشأة كتّاب السيرة الذاتية العربية، وأثّرت في تطوّر هذا الفن.

1- مفهوم السير الذاتية وعلاقتها بالرواية:

أصبحت السيرة الذاتية فنا من فنون الخطاب المعاصر له أسسه الفنية والإجرائية التي تلتقي في بعض جزئياتها مع الفنون الخطاب الأخرى كالرواية مثلا، ولكنها تحمل خصوصية تجعل منها كيانا مستقلا يستحق الدراسة والتحليل.

أ- ماهية السيرة الذاتية:

جاء في لسان العرب: السير: الذهاب، سار يسير سيرا وتسيارا ومسيرة وسيرورة ... والتسيار تفعال من السير وسايره أي جاراه فتسايرا وبينهما مسيرة يوم وسيره من بلده: اخرجه واجلاه وسيرت الجل عن ظهر الدابة: نزعه عنه والسيرة: الضرب من السير، والسيرة: الكثير السير. والسيرة: السنة، والطريقة يقال: سار بهم سيرة حسنة، والسيرة: الهيئة، وفي التنزيل العزيز: "سنعيدها سيرتها الاولى"، وسير سيرة: يحدث احاديث الاوائل[1]

وجاء في القاموس المحيط: السير: الذهاب كالمسير والتسيار والمسيرة والسيرورة والسيرة: الضرب من السير، والسيرة بالكسر: السنة والطريقة والهيئة[2]

والسيرة في تعريفها العام بحث يستعرض فيه الكاتب حياته احد المشاهير، مبرزا من خلاله المنجزات التي تحققت في مسيرة حياته او حياة المتحدث عنه[3]

اما فقن السيرة في التعريف الادبي فهو نوع من الادب يجمع بين التحري التاريخي والاتباع القصصي، ويراد به درس حياة فرد من الافراد ورسم صورة دقيقة لشخصيته وقد ظهر مصطلح سيرة ذاتية الى حيز الوجود لاول مرة، في القرن التاسع عشر، في معجم اوكسفورد الانجليزي الذي يرجع تاريخه الى عام 1809م ذالك في مقال لـ "روبرت ساوثي" عن حياة المصور البرتغالي "فرانسيسكوا فييريرا"[4]

والسيرة الذاتية هي "أن يكتب المرء بنفسه تاريخ نفسه، فيسجل حوادثه وأخباره، ويسرد أعماله وآثاره، ويذكر أيام طفولته وشبابه وكهولته وما جرى له فيها من أحداث"[5]

ولكن هل يمكن أن نعتبر السّيرة الذّاتيّة جنسا أدبيّا مستقلاّ وقائما بذاته؟. فمنذ سنة 1970 أعلن جون ستاروبنسكي (Jean Starobinski) أنّه "ينبغي أن نتجنّب الحديث عن أسلوب أو حتّى عن شكل مرتبطين

بالسّيرة الذّاتية، إذ لا وجود في هذه الحالة لأسلوب أو لشكل ينبغي الالتزام بهما"[6]، ومع ذلك سعى منظروا الأدب إلى رسم هذه الحدود الفاصلة بين السّيرة الذّاتيّة والأجناس السرديّة القريبة.

وقد اختصّ الإنشائي الفرنسي فيليب لوجون (Philippe Lejeune) في البحث في السّيرة الذّاتيّة فقد أصدر كتابه"الميثاق السير الذّاتي (Le Pact autobiographique) عام 1975 وكان من قبل قد أصدر مؤلّفه الهام"السّيرة الذاتيّة في فرنسا (L' autobiographie en France) عام 1971 ثمّ أصدر كتابين آخرين هما أنا هو آخر (Je est un autre) عام 1980 و"أنا أيضا" (Moi aussi) عام 1986 [7]. وقد عرّب المغربي (عمر حلي) فصلين من كتاب "الميثاق السير ذّاتي". وهما (الميثاق السير ذّاتي) و(السيرة الذاتيّة والتّاريخ الأدبي) وأصدرهما في كتاب عنوانه (السّيرة الذاتية – الميثاق والتاريخ الأدبي)، لكنّ فضل (فيليب لوجون) إلى جانب الجهد العلمي الّذي بذله يتمثّل في أنّه خرج بتعريف علمي للسيرة الذّاتيّة مفاده أنّها "حكي استيعادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاصّ وذلك عندما يركّز على حياته الفرديّة وعلى تاريخ شخصيّته بصفة خاصّة"[8]

ومهما كان الأمر فإنّنا نعتقد أنّ السّيرة الذّاتيّة باعتبارها جنسا حديثا مفهوما ومصطلحا لم يتعاطها العرب إلاّ في عشرينات القرن العشرين ويعدّ كتاب "الأيّام" لطه حسين النصّ الأدبي الأوّل المتمثّل لمفهوم السّيرة الذّاتيّة. فقد كان إلمامه بالثّقافة الغربيّة ولا سيّما الثقافة الفرنسيّة عاملا مساعدا على تأليف النصّ. وعلى العموم فقد تأثرت السيرة الذاتية العربية الحديثة "بالدراسات النقدية للنصوص، والنظريات النفسية والبيولوجية، وأصبح أكثرها أقرب إلى المظهر العلمي منه إلى المظهر الأدبي، وقلت الرغبة في تأريخ الحياة نفسها، وأصبح الحديث عن الأشخاص تأريخا لآرائهم إن كانوا أدباء، أو توضيحا لدورهم السياسي وعلاقاتهم الاجتماعية"[9].

وفي الختام "يلاحظ جورج ماي أن السيرة الذاتية جنس حديث وربما كانت حداثته في أصل الخلاف الملحوظ بين الباحثين والمهتمين الأوربيين حول إيجاد تعريف للكتابات التي قد تدخل في معنى الجنس السير ذاتي، وتراه يؤكد أن الاهتمام المتزايد بالكتابات الذاتية ورسوخ تقليدها الثقافية عبر الزمن هو الذي يحمل القارىء عادة على القبول بالخصائص المكونة التي ساهمت في ظهورها وتطورها"[10]

فالسيرة الذاتية هي خطاب إبداعي جديد موضوعه الذات الساردة نشأ في أحضان الأدب الأوربي، وقد بدأت بوادر انتقاله إلى الأدب العربي مع الرواد الأوائل الذين اتصلوا بالأدب الغربي، وهو اليوم يحاول ترسيخ وجوده في الأدب العربي.

ب– السيرة الذاتية والرواية: كانت بداية الرواية سيرا ذاتية مثلت حياة أصحابها في أشكال أدبية هامة تعود إلى العصور القديمة كما يوضح ذلك (باختيين)، وتظلّ العلاقة بين السّيرة الذّاتيّة والرّواية أكثر التباسا فكثيرا ما ننظر إلى الرّواية على أنّها في وجه من وجوهها جنس سير ذاتيّ. وظهرت أجناس وسيطة بين الرّواية والسّيرة الذّاتيّة شأن رواية السّيرة الذّاتيّة (roman autobiographique) والسّيرة الذّاتيّة الرّوائيّة (auto romanciée biographie).

وهي جميعها توظّف أساليب سرديّة متشابهة سعى منظّروا الأدب إلى البحث عن الحدود الفاصلة للتّمييز بينها. ويظلّ ميثاق القراءة المعيار الأساسي للتّمييز بين الرّواية والسّيرة الذّاتيّة فالميثاق الروائي يظهر في لبوس الخيال ويظهر الميثاق السير الذّاتي في لبوس الحقيقة[11] تتأتّى كلّ الإشكاليات والقضايا الّتي تطرحها السّيرة الذّاتيّة باعتبارها جنسا قائما بذاته ذا إنشائيّة خاصّة من حداثة هذا الجنس في الأدب العالمي. فهو باعتباره جنسا سرديّا قد ظهر بعد الرّواية وبالتّالي قد استفاد من إنجازات الرّواية الفنيّة استفادة كبيرة ممّا أحدث تداخلا بين الجنسين بلغ حدّ الالتباس لدى بعض كتّاب السّيرة الذاتية وهو جنس أدبيّ ارتبط بالثّقافة الغربيّة، بل قل إنّه نتاجها وثمرتها رغم النّصوص التّراثيّة الّتي يشير إليها بعض الدّارسين العرب بحثا عن أصول عربيّة إسلاميّة لهذا الجنس الأدبي المستحدث[12].

وهناك ملاحظتان أساسيتان يمكن تقديمهما حول بنية الرواية وبنية السيرة الذاتية:

- السيرة الذاتية بنية مغلقة ومنتهية، لأنها تنتهي مع حياة كتابها، وبهذا فهي لا تمتد في المستقبل وتلغي كل بعد في هذا الاتجاه، ومن حيث البناء فهي تشبه الأسطورة والملحمة.

- أما الرواية فتبدو بنيتها منفتحة على كل الأزمنة فهي تصور حياة متطورة ونامية ويشهد القاريء أهم اللحظات في حياة الشخص وهي تتطور أمامه على صفحات الكتاب.

* من هنا نلاحظ أن السيرة الذاتية تحاول كبح وتيرة تطور الشخصية في حين أن الرواية الجديدة / الحديثة مالت إلى محاكاة "الأنا" ووضعه موضع تساؤل، وفي بعض الأحيان إلى تشييئه.[13]

وقد حفل أدبنا العربي الحديث بالسير الذاتية المصوغة في قالب روائي "توسع الكُتَّاب في إفراغ أزماتهم النفسية والفكرية والعاطفية في هذا القالب الذي يتطلب من الكاتب براعة فنية قد لا تتاح لكثير من الكتاب، إذ يمزج الكاتب هنا الحقيقة التاريخية المتعلقة بحياته بالصياغة الفنية المستعملة في الرواية"[14]

2-السير الذاتية وفعل إدراك الذات:

السيرة الذاتية تختلف عن باقي الفنون الأدبية في ارتباطها المعلن عنه بالذات (صاحب العمل) ارتباطا وثيقا، فالقاريء يدخل عالم السيرة الذاتية وهو يعلم أن مدار الحديث سيكون عن هذا الأنا الحقيقي دون ريب حتى ولو ظهر في السيرة غائبا أو بضمير الغائب، أو حاول الكاتب أن يوهم القاريء أن المسرود عنه قد يكون بعيدا عن هذه الذات التي بتمثلها القاريء في مخيلته.

ولكن إذا كان القاريء متأكدا أن الأنا في السيرة هو نفسه الكاتب، فإن الكاتب لا يستطيع الجزم بأن من في السيرة الذاتية يعبر عنه لأن الحديث عن الذات وعن أحداثها الماضية وما عرفته في مسيرتها الطويلة من الصعوبة بمكان ولأن معرفة الذات تتطلب إدراكا لهذه الذات ومعرفة حقيقية لها وإدراكا بما يحيط بها من زمان ومكان وأنا ظاهرة وأنا خفية إدراكا بالوجود وبالدور في الحياة.

أ- مفهوم الإدراك:

يعرفه أندريه لالاند (A_ LALANDE) في معجمه الفلسفي بأنه "الفعل الذي ينظم به الفرد إحساسا ته الحاضرة مباشرة ويفسرها ويكملها بصور وذكريات ومبعدا عنها بقدر الإمكان طابعها الانفعالي أو الحركي مقابلا نفسه بشيء يحكم عليه تلقائيا بأنه متميز عنه وواقعي ومعروف لديه"[15].

والفرق بين الإحساس والإدراك أن الأول يحدث نتيجة تنبيه الخلايا الحسية، أما الإدراك فهو الوظيفة العقلية التي تعطي لهذه الإحساسات صورتها المتميزة ومعناها الخاص، وتشارك في الإدراك مختلف الوظائف العقلية كالذاكرة والتخيل والإرادة وغيرها، ولذلك فالإدراك عملية عقلية بالغة التعقيد

ب- أنواع الإدراك الذاتي:

يشعر الإنسان في مراحل حياته الأولى بذاته من خلال جسمه وحاسة اللمس لديه ومداعبة الأم له دون أن يشعر بنفسه داخليا إذ يحتاج إلى فترة أطول ليدرك خلجاته النفسية وتتكون لديه الأحلام، وتصبح لديه القدرة على التخيل، ويحتاج إلى فترة أطول قد توازي مرحلة الإدراك النفسي ليدرك موقعه داخل المجتمع الذي يعيش فيه. لذلك فكل إنسان يمر بثلاثة أنواع من الإدراك هي:

١- الإدراك الجسماني: لكل فرد ميزته الخاصة التي تميزه عن باقي الأفراد وتتعلق بأبعاد الجسم من طول أو قصر ة قوة أو ضعف وصحة أو مرض، إلى جانب ملامح الوجه الخاصة. والعلاقة بين الجسم والذات علاقة تأثير متبادل وعن هذا التأثير ينتج السلوك الفردي.

٢- الإدراك النفسي: يمثل الجانب النفسي إدراكنا لذاتنا وإدراكنا لحياتنا النفسية المستمرة، وبقدر ما تتأكد وتثبت الهوية النفسية بقدر ما تتأكد ذاتنا، وهي هوية مرتبطة باستمرار الذكريات وتداخلها، وبناء على ذلك يكون سلوكنا مرتبطا بواقعنا النفسي الذي عشناه وبذكرياتنا، وبمعنى آخر بماضينا الفردي الخاص.

٣- الإدراك الاجتماعي: إذا كانت الذات تتكون من الجانب الجسمي والجانب النفسي اللذين يجب إدراكهما وإدراك علاقة الذات بهما، فالجانب الاجتماعي رغم أنه خارج عن الذات إلاّ أنه أحد مكوناتها الأساسية التي لا تتم إلاّ بها، وبالتالي وجب إدراك علاقة الذات بالمجتمع وهو إدراك وجودي بالقالب الاجتماعي المكون من الأسرة والمدرسة والحي والمدينة ومكان العمل وغيرها.

ج- مراحل إدراك الذات:

لا يدرك الإنسان ذاته ووجوده في هذه الحياة دفعة واحدة بل يمر بعدة مراحل تتطور تبعا لنموه الجسمي والعقلي والتخييلي، وتبعا لعلاقاته الاجتماعية والإنسانية مع أقرانه من بني البشر، وهذا الإدراك لا يتساوى بالشكل نفسه عند جميع البشر، فالإنسان العادي لا يمكن أن يدرك ذاته بالشكل الذي يتأتى للمفكرين والعلماء والأدباء، فهؤلاء ملكوا تجربة في الحياة تفوق ما لغيرهم وبالتالي ففهمهم لمواقعهم في الحياة ودورهم في الوجود هو أعمق من غيرهم، وعملية إدراك الذات عملية معقدة تبدأ منذ الطفولة المبكرة وتتطور مع نمو الإنسان، وتمر بمراحل ثلاث هي:

١- مرحلة اللاتمايز: وهي المرحلة التي تلي الولادة والأشهر الأولى من حياة الشخص، ويكون إدراك الرضيع لذاته في هذه المرحلة محصورا بين الإحساسات السطحية التي لا ترقى إلى مستوى الأنا الذي يدرك مصدر وحقيقة هذه الإحساسات، ويسمي بياجيه Piaget **هذه** المرحلة بـ "مرحلة عدم التمييز المطلق بين الأنا والمحيط"[16]

٢- مرحلة الأنا الجسماني: الملاحظ أن تبلور إدراك الأنا الجسماني يخضع لمدى نضج المراكز العصبية بحيث يصبح الإنسان قادرا علي الربط بين مختلف الإحساسات وعلي توجيه حركاته الإرادية التي كان عاجزا عن ضبطها من قبل.

٣- مرحلة الشعور بالذات: وهي مرحلة متطورة من الوعي والإدراك بوجود الذات حيث يدرك الإنسان أنه إضافة ألي حياته الخارجية فهو يمتلك حياة داخلية أغنى بكثير، بل هي عالم من الإدراكات المتنوعة للذات الواحدة وفيها يعتمد علي الخيال والذاكرة والأحلام وغيرها.

د-إدراك الزمان والمكان:

إضافة إلى الإدراك الجسماني والنفسي والاجتماعي، يدرك الإنسان بشكل متفاوت وفي مراحل متعددة من حياته أمرين هامين متعلقين بوجوده هما الزمان والمكان، فالزمان يحمل سمات الحركة والتغير والديمومة والسيرورة، ويحمل سمات الموت وحتمية النهاية، أما المكان فيدل على التملك والحضور والاتساع والجمال، وكل من الزمان والمكان يحملان دلالة الوجود، وعلاقة الزمان والمكان بالذات تتحدد بإدراكهما وسنقدم الزمان على المكان رغم أن إدراك الإنسان يبدأ بوجوده المكاني قبل وجوده الزماني، ولكن علاقة الزمان بالذاكرة وعلاقة هذه الأخيرة بالسيرة الذاتية –كما سيظهر في فصل لاحق - استوجبت هذا التقديم:

١-إدراك الزمان أو التعاقب: يقول بول فريز Paul frays "عندما يلاحظ الإنسان أنه يعيش في الزمان فإنه يؤكد ببساطة أنه رهن لمختلف التغيرات، وليست سيكولوجيا الزمان سوى دراسة جميع السلوكيات المتعلقة بالتغير... والتغيرات التي نتحدث عنها مثل ما هي تغيرات الوسط الفيزيائي والاجتماعي الذي نعيش فيه هي أيضا تغيرات عضويتنا "[17].

بمعنى أن إدراك الزمان لا يكون إلا في الحالات التي يحدث فيها تغير أو ما يسمى عند الرياضيين بالتعاقب، فإدراك الأشياء الثابتة يكون من حيث تحديدُ أبعادها، أما إدراك الذات فيكون من حيث التعاقب والحركة.

أما في السيرة الذاتية فزمن الأحداث مختلف عن زمن الكتابة فزمن المقام هو الحاضر وزمن الأحداث هو الماضي الممتدّ في الزّمان. ولذلك إذا أردنا أن نحدّد ما نسمّيه بزمن المقام السّردي فيمكن أن نلاحظ أنّ السّارد (المؤلّف) لا يمكنه أن يحكي ويروي إلاّ بواسطة زمنين هما الماضي أو الحاضر. لأنّ السّرد لا يكون إلاّ لاحقا للمقام ومتواقتا معه. وهي ملاحظة عامّة تهمّ كلّ الكتابات السّرديّة التي هي من قبيل السّيرة الذّاتية[18].

٢- إدراك المكان: إذا كان إدراك الزمان هو إدراك للتعاقب والتغير من حول الذات، فإن إدراك المكان هو إدراك للذات نفسها داخل الحيز والفضاء اللذين يحيطان بها واللذين يتميزان بالثبات أو لنقل بالتغير البطيء الذي لا يلاحظ بسهولة، وبالتالي فإدراك المتغير أسهل من إدراك الثابت.

والمكان يتميز بالامتداد أي أنه يمتد في حيز معين يمكن للإنسان ملاحظة وجوده "فجميع الأشياء الموجودة بجميع خصائصها ومميزاتها ندركها في هذا الإطار الذي يبدو على نحو امتداد، ويعني هذا أننا أثناء إدراكنا للعالم الخارجي الموضوعي نقابل بين ذاتنا والعالم الخارجي الموضوعي، فكأن ذاتنا منفصلة عن الأشياء الممتدة في المكان"

ولكن المنهج الظاهراتي لا يقبل بفكرة أن الزمان متغير وأن المكان ثابت فهوسرل (HUSREL) يرى أن"إدراكنا للأشياء ليس إدراكا ثابتا فالثابت هو الأشياء نفسها، فالأشياء موجودات مادية لها طبيعتها الثابتة سواء كنا مدركين لها أم لم نكن، بيد أن إدراكنا الذي يتألف من شعورنا الراهن بإدراك شيء ما لا يلبث أن يتغير وتبعا لذلك يتغير الإدراك المتألف من هذا الشعور نفسه... فأنا أرى بال انقطاع هذه الطاولة، سوف أخرج وأغير مكاني ويبقى عندي بلا انقطاع شعور بالوجود الجسمي لطاولة واحدة هي نفسها لطاولة هي في ذاتها لم تتغير، إن إدراكي لها لاما فتيء يتنوع، إنه مجموعة متتابعة من الإدراكات المتغيرة"[19].

هـ- إدراك الذات في السيرة الذاتية بين الأنا الوجودي والأنا التلفظي : الذات في السيرة الذاتية لها حضور فاعل على مستويات النص السير ذاتي السطحية والعميقة جميعا، ولا يجدر بالعملية النقدية أن تغفل هذا الجانب لأن أهميته في التحليل أساسية إذا ما علمنا أن مركز النصوص السير ذاتية على خلاف النصوص الإبداعية الأخرى هو الذات "فالمتكلم في السيرة الذاتية يتمثل حضوره ككاتب، لأنه يقوم بفعل النطق والصياغة ويستحضر في الآن نفسه حضوره الآخر، أناه المتعدد الأبعاد والمستويات، وهي تنهض كعلامة على الوجود والتطور والفعل من خلال التطورات والأحداث والسياقات المروية"[20]

والذات في السيرة الذاتية عادة ما تنقسم إلى ذات مصدرها الوجود الفعلي للكاتب أو حتى لبطل السيرة الذاتية، وتنقسم كذلك إلى ذات تلفظية مصدرها النص ذاته لا الواقع الوجودي، وهذا التعدد في أشكال الذات لا يعني الانفصال بينها، بل هي متكاملة.

١- الأنا الوجودي: فالأنا الوجودي "يتضمن الإحساس بالكينونة والصيرورة في الوقت نفسه"[21]، بمعنى أنه المعبر عن القيم الذاتية المتعلقة بالذات ككائن وجودي له خصوصيته الفردية المتعلقة بأزمنة وأمكنة وأحداث معينة تتحول وفق صيرورة الحياة من شكل إلى شكل آخر.

"غير أن هذا الوضع الوجودي يبدو صامتا أو هو لا يستظهر واقعه وتحولاته إلا من خلال وضع آخر يمكن تسميته بالوضع التلفظي (الأنا التلفظي)، أي من خلال اللغة نحوا وتركيبا"[22].

ومن الأسباب التي جعلت كثيراً من نقاد السيرة الذاتية ينهجون منهج البحث عن الذات هو ضمير المتكلم الذي يوحي بالتطابق بين المؤلف وبطل السيرة، وهي تقنية سردية يوظفها كتّاب السيرة الذاتية لإكساب نصوصهم مصداقية وواقعية من خلال الإيهام بأن النص يروي سيرة الراوي البطل، لكن بعض النقاد لا يدركون أو يتجاهلون الفرق بين أن تكون السيرة الذاتية المروية بضمير المتكلم سيرة للبطل وبين أن تكون سيرة للمؤلف.

ولكن حضور الذات في دلالتها على الفردانية هو –كذلك– أمر له أهميته إذا ما علمنا "أن امتلاك ضمير الأنا المتكلم للتعبير عن الوجود الفردي ليس صيغة نحوية للدلالة على الحضور وقت النطق فقط، كما لا يمكن النظر إليه كمقولة تقوم بوظيفة التواصل على مستوى التلفظ حصرا، بل هو كذلك وعي بالتشكل المعنوي الذي يضفي على الذات صفات خاصة ليست لغيرها وإحساسا بالتميز لا يشاكله التباس، وهوية مستقلة تتأسس على الفرادة المصطفاة بين الجواهر الفردية الأخرى"[23].

٢– الأنا التلفظي: أما علي المستوى اللساني نلاحظ توحد الدال بالمدلول والذات بالموضوع فالأنا هو دال ومدلول في الوقت نفسه فإذا أخذنا الملفوظ التالي "أجري" فإننا نلاحظ أنه يمكن تحليله من مستويين: الأنا يحكي ثم الأنا يقوم بفعل الجري، أي أن البطل يقوم بالفعل والراوي يحكيه، والسيرة الذاتية تجمع بين البطل والراوي من خلال الجمع بين وظيفتيهما داخل النص:

- البطل=الأنا الفاعلة التي تقوم ببناء شفرة النص
- الراوي=الأنا الموضوع ودورها فك هذه الشفرة

والملاحظ أن الأنا حاضرة لتمثيل البطل والراوي معا، أو الكاتب والمكتوب عنه وبالتالي"فالمتكلم في السيرة الذاتية يتمثل حضوره ككاتب لنه يقوم بفعل النطق والصياغة ن ويستحضر في الآن نفسه حضوره الآخر، أناه المتعدد الأبعاد والمستويات وهي تنهض كعلامة على الوجود والتطور والفعل، من خلال الأحداث والتطورات والسياقات المروية"[24].

وخلاصة الحديث عن الأنا الوجودي والأنا الملفوظ، أن الأول يظهر في السيرة الذاتية كشكل من أشكال الوعي بالذات ووعيها بنفسها كذات متميزة ومستقلة[25]. أما الثاني فيستعرض ذاته بطريقة شعرية عند الحديث عن سيرته ليثير لدى المتلقي الإحساس بالجمال، إذ يتحول من ذات متكلمة إلى ذات موضوع الكلام.

3– إدراك الذات في السيرة الذاتية العربية:

في السير الذاتية العربية يمتزج (الأنا الوجودي) بـ (الأنا التلفظي) ويتطابق السارد والمسرود عنه في النص، ويتحقق عبر عملية التذكر نوع جديد من الإدراك، إنه إدراك لحقيقة الذات كما هي في الحياة الواقعية، لا كشخصية سردية خاضعة للخيال ولمتغيرات الواقع السردي في النص.

ولعل مرحلة الطفولة هي المرحلة التي لم يتشكل فيها إدراك فعلي للذات وللوجود أثناء عيشها، ولكنها تمثل اللبنة الأولى لبناء الشخصية، لذلك يعود كتّاب السيرة الذاتية إليها لمحاولة التعرّف على ذواتهم عبر التعرّف على هذا (الأنا الآخر):

أ- الأنا والأنا الآخر في "الأيام" لطه حسين:

سيرة طه حسين "الأيام" التي يعتبرها أغلب الدارسين والنقاد أول سيرة ذاتية متكاملة سواء من حيث الشكل الفني أو من حيث طريقة السرد، ولكن الذي يلفت الانتباه في هذه السيرة هو "الذات المتكلمة" التي تعددت في النص بشكل يدعو إلى الوقوف عند هذا التعدد والتنوع في بروز الأنا وفي علاقة هذا التنوع بالحالة النفسية لصاحب السيرة.

خصص طه حسين الجزء الأول من كتابه "الأيام" لمرحلة الطفولة، وهذا الجزء هو في اعتقادي الأهم في هذه السيرة الذاتية لن "الطفولة – كما يرى يوسف مراد – تفسر كثيرا من مظاهر الاكتمال أو الاختلال في الإنسان، إذ أنها تترك أثرها في شخصيته الخاصة إذا كانت طفولته تعيسة عانى خلالها من تنازع أفراد الأسرة، وعدم الوفاق بين الوالدين"[26]

ومرحلة الطفولة هي من أصعب مراحل حياة طه حسين وأكثرها تأثيرا في نفسه، وفي تشكيل مستقبله، فكل الأفكار التي تكونت لديه في هذه المرحلة أصبحت أسسا تدعم فلسفته في الحياة. وقد ظهر طه حسين الطفل بأوجه ثلاثة:

١- الطفل الأعمى: إن أهم ذكريات طه حسين هي تلك المتعلقة بالفترة التي أصيب فيها بالعمى، فهو وإن كان في سن صغيرة يستعصي فيها على غيره تذكر الأحداث والوقائع، إلا أننا نجد لطه حسين عذره في رسوخ هذه المرحلة في فكره ووجدانه، فكل ما يحيط به في بيئته الريفية الفقيرة وفي منزله وبين إخوانه وأخواته يدعوه إلى التأثر بتلك العاهة المريعة التي أصابت الطفل وهو في ريعان الصبا "جعلته يحرم ألوان من الطعام واللعب على نفسه وكان لا يزال صبيا لما يتجاوز السادسة أو السابعة من عمره إثر ضحك إخوته منه لأنه تناول اللقمة بكلتا يديه، ثم غمسها في الطعام ورفعها إلى فمه، لكن أمه تبكي وأباه يعلمه كيف يتناول اللقمة، ومن ذلك الوقت تقيدت حركاته بالخوف والحياء"[27].

ثمّ يذكر عاهته ذكرا يثير الشّفقة عندما يشبه نفسه بأوديب الذي مضى في طريقه بلا بصر "رأيتك ذلك اليوم تسمعين هذه القصّة مبتهجة من أوّلها ثمّ أخذ صوتك يتغيّر قليلا قليلا. وما هي إلاّ أن أجهشت بالبكاء وانكببت على أبيك لثما وتقبيلا، وفهمت أمّك وفهم أبوك وفهمت أنا أيضا أنّك إنّما بكيت لأنّك رأيت أوديب الملك كأبيك مكفوفاً لا يبصر"[28] إنّها إشارات قليلة ولكنّها ذات أهميّة قصوى لأنّها تطرح العلاقة الممكنة بين السّارد والشّخصيّة والمؤلّف وتحديد هذه العلاقة يتّصل أساسا بتحديد جنس هذا الكتاب.

فمثل هذا الاستهزاء كان تأثيره شديدا على الصبي الصغير في هذه المرحلة الحرجة من عمر الطفولة مما جعل الصبي يتخذ مواقف لا نستطيع أن نصفها بالصبيانية بل هي من القرارات التي يتخذها الكبار حيث

"حرم على نفسه ألوانا من الطعام لم تبح له إلا بعد أن جاوز الخامسة العشرين، حرم على نفسه الحساء ة الأرز وكل الألوان التي تؤكل بالملاعق لأنه كان يعرف أنه لا يحسن اصطناع الملعقة وكان يكره أن يضحك إخوته أو تبكي أمه أو يعلمه أبوه في هدوء حزين"[29]، "ثم حرم على نفسه من ألوان اللعب والعبث كل شيء إلا ما لا يكلفه عناء ولا يعرضه للضحك أو الإشفاق"[30].

والملاحظ لهذا الالتزام الذي طبقه الصبي طه حسين على نفسه وفرضه لتلك القسوة الكبيرة، يعلم أن ما كان يحاول تفاديه كان أكثر قسوة وأشد إيلاما.

٢- الطفل الساخط: لقد ولدت المواقف السابقة وغيرها سخطا كبيرا في نفس الطفل الأعمى الذي رأى أن الظلم يحيط به من كل جانب حتى من والديه أعز الناس لديه، فهذا أبوه يحرمه من ارتداء العمامة والجبة والقفطان بعد أن أتم حفظه للقرآن الكريم، فحال بينه وبين أن يصبح شيخا أزهريا، فأحس بظلم شديد "وأن الإنسان ليظلمه حتى أبوه، وأن الأبوة والأمومة لا تعصم الأب والأم من الكذب والعبث والخداع"[31].

و لم يتوقف الظلم الذي سبب له هذا السخط الكبير عند الوالدين بل تعداهما إلى الأخ الأكبر الذي يفترض به أن يكون معينا له في غربته في الأزهر الشريف فإذا به كان أشد وطأة من وحشة البعد.

٣- الطفل المتعالي: طه حسين الطفل، الأعمى، الساخط عانى في صباه معاناة كبيرة كانت لتجعل من أي طفل في مثل سنه عاجزا يستجدي عون الآخرين، ولكن طه حسين واجه مشاكله بالتعالي عليها، وبالتعالي على كل المحيطين به، فكان سلاحه في مواجهة الآخر هو الزهو بالنفس إلى درجة الغرور "وهو نفسه يعترف بأن غروره كان شديدا منذ أن كان صبيا يحفظ القرآن في الكتّاب"[32].

وهو يخبر ابنته ذلك بصريح العبارة يقول: "ألست ترين أن أباك خير الرجال وأكرمهم، ألست ترين انه كان كذلك خير الأطفال وأنبلهم"[33].

ولعل هذا الزهو بالنفس والتعالي على الغير هو رغبة من الطفل في لفت الانتباه، فهو يروي حادثة رجوعه من الأزهر الشريف بعد أن قضى به سنة كاملة ولم يهتم أحد من أهل القرية به، ولم يلق من أحد عناية أو سؤالا. ويصرح بأن إعراض الناس عنه على هذا النحو قد آذى غروره، وبأنه لم يطق صبرا على هذا الإعراض الذي لقيه من أهل القرية فقد احتمل منهم ما كان يحتمل قديما لذلك بيت نية التمرد، فتكلف وعاند وغلا في الشذوذ فسخر من سيدنا ومن أحاديثه كما سخر من أبيه وأنكر عليه قراءة دلائل الخيرات حتى ذاع أمره بين أهل القرية وتناقلوا إنكاره لبعض ما يؤمنون به، وبذلك استطاع أن يشغل الناس بالحديث عنه والتفكير فيه وحملهم كما حمل أسرته على تغيير نظرتهم إليه[34].

ب – الأنا في "سبعون" لميخائيل نعيمة:

لم يكتب ميخائيل نعيمة سيرته الذاتية لمجرد الكتابة أو لتخليد نفسه وذكراها، بل لتصحيح حساباته مع نفسه وللبحث عن ذاته كما فعل العقاد "و معرفة الذات لديه لم تكن أمرا يسيرا بل هي غاية شاقة مضنية لم

يتوصل إليها إلا بعد معاناة ومكايدة خاض في سبيلها ضروبا من الصراع"[35]. وهو صراع هدفه معرفة الذات معرفة حقيقة:

١- البحث عن الذات: لو طرح الإنسان على نفسه السؤال الذي طالما شغل فكر الفلاسفة والعلماء، من أنا؟ لما تمكن من إقامة حد بينه وبين أي شيء آخر "أو ليس يرى الإنسان أنه إذا شرب قطرة من ماء فكأنه شرب البحار كلها لأن لكل قطرة في كل بحر صلة بالقطرة التي يشربها، وإذا ما أكل ثمرة فكأنه أدخل إلى جوفه الحياة بأسرها لأن كل ما في الحياة قد تعاون في تكوين تلك الثمرة"[36].

وهذه الوحدة بين أشياء الطبيعة تدفع ميخائيل نعيمة إلى التفكير في وحدة الإنسانية "وإذا ما صافح إنسانا فكأنه صافح كل إنسان، من آدم حتى آخر آدمي أطال على هذه الأرض، إن كل إنسان يحمل في نفسه كل الناس، وهكذا، فكيفما انقلب الإنسان وجد أنه في كل شيء، وأن لك شيء فيه، وأنه لا يحصره مكان ولا يحده زمان، فإذا كان وهو مقيد بحواسه يعتذر عليه أو يقيم فاصلا بين محسوس ومحسوس، فكيف به لو انطلق من عالم الحس إلى عالم الروح"[37]

٢- حيرة الذات والتأمل الصوفي: اتخذ ميخائيل نعيمة من تجارب حياته وسيلة إلى التأمل والتفكر، وقد نشأ فكره الصوفي من نظرته إلى الكون والحياة، وسيرته الذاتية "تتميز بين الترجمات الذاتية في أدبنا العربي الحديث بأنها هي وحدها التي تقوم على فكرة رئيسية بعينها"[38]، وهي فكرة التأمل في الحياة.

ولكن حتى هذا التأمل قد يقوده إلى حيرة أكبر، وإلى تفكير أعمق في كل ما يحيط بهذه الذات الحائرة"و ما هي إلاّ دقائق حتى يغيب عني كل شيء وأراني كالماشي في نفق مظلم تحت الأرض ففي داخلي أصوات لا تنفك تسألني من أين كل ذلك وإلى أين ولماذا، من الله وإلى الله... وبغتة ألمح بصيصا من النور، إنه ضئيل، ضئيل، بعيد، بعيد، ولكني أشعر في الحال بانفراج في صدري وفي النفق وفي الظلمة يزداد الانفراج فيغدو شبه غبطة، وأحس كأن أبوابا كثيرة مغلقة في داخلي أخذت تتفتح"[39]، ولعل زوال هذه الظلمة عن عين نعيمة لم تكن إلاّ بفضل التفكير والتأمل الصوفيين اللذين منحاه الطمأنينة والسلام.

٣- البحث عن الكمال والخلود: يرى ميخائيل نعيمة أن الإنسان يبحث دوما عن الكمال الموجود في صور الطبيعة المتنوعة حتى يستطيع أن يتحد بهذه الطبيعة وأن يحقق في داخله ذلك الصفاء البلوري الموجود في الكون حوله "فالإنسان الطامح على الانفكاك من جميع القيود والحدود والسدود، وإلى فهم الحياة مجردة من أكسيتها وعلى الاتحاد بها... يحلم بأن يصبح روحا صافيا كما هي الحياة التي في داخله، روح صاف لا يحصره زمان ولا يحده مكان"[40].

وبهذا الاتحاد مع الطبيعة والكون فإن الإنسان "ينمو ويتطور نحو الكمال الرباني"[41]، فيخلد ولا يموت أبدا إذ"كيف يموت ويدفن من تجلت فيه الحياة ولو لمحة من الزمن إلا إذا ماتت الحياة ودفن الزمن"[42]. والكمال الذي وصل نعيمة إلى رؤيته رؤيا العين هو الكمال الروحي "فالحياة بالروح وحده هي الكمال، وهي الخلود، وحين يحيا الإنسان حياة روحية بعد بلوغه تلك المعرفة الروحية يكتمل ويخلد فلا يدنو منه الموت"[43].

٥- الذات والموت: لم يعد للموت في حياة ميخائيل نعيمة أهمية كبيرة ما دام هو والكون المحيط به وحدة واحدة، وما دام قد وصل إلى المعرفة الشاملة التي فتحت أمامه سبل فهم الحياة على حقيقتها لا زائفة كما يراها الكثير من الناس اليوم فقد وعى تمام الوعي بأن حياته في هذه الأرض "ليست سوى غفلة يكتنفها ضباب الموت، وأن أجمل ما فيها حلم يخترق ضباب الموت إلى يقظة الحياة المثلى ويرفع الإنسان إلى ما فوق الخير والشر"[44].

فالموت هو مجرد وسيلة عبور إلى عالم الحقيقة المثلى التي يمكن للإنسان أن يراها في حياته الدنيا من خلال التأمل والتفكير وإذا استطاع الإنسان تحقيق ذلك فقد صار من الذين "يستيقظون على غبطة المعرفة الكاملة والحرية التي لا تحد"[45].

والذي عاش في هذه الحياة وحقق المعرفة فكأنه لم يمت "فكيف يموت ويدفن من تجلت فيه الحياة ولو لمحة من الزمن إلاّ إذا ماتت الحياة ودفن الزمن"[46].

لقد عاش ميخائيل نعيمة حالما، متصوفا، مفكرا في العلاقة بين الذات والوجود، باحثا عن الصورة المثلى لذات مثالية، تعلم دورها في الحياة وتعتبر الموت مجرد انتقال إلى عالم الحقيقة.

ج- الذات "خارج المكان" عند إدوارد سعيد:

تتّخذ السّيرة الذاتيّة الّتي كتبها إدوارد سعيد "خارج المكان" شكل الرّسم الذّاتي (portrait auto). في هذه السّيرة الذاتيّة يميل السّارد إلى رسم ملامح شخصيّته المتطوّرة عبر رحلة الحياة الّتي عاشها. ولذلك لا تتباعد الحكايات القصيرة الّتي يرويها عن الحكاية المركزيّة أي حكاية السّارد الخاصّة[47].

وقد كُتب هذا الكتاب في "حياض الموت" بمعنى ما. فقد شرع المؤلّف في كتابة سيرته الذّاتيّة عندما علم أنّه مصاب بمرض عضال سيضع حدّا لحياته إنّ آجلا أو عاجلا. وترقّبا للموت كتب إدوار سعيد سيرته الذّاتيّة: "هذا الكتاب هو سجّل لعالم مفقود أو منسيّ. منذ عدّة سنوات، تلقّيت تشخيصا طبيّا بدا مبرما فشعرت بأهميّة أن أخلّف سيرة ذاتيّة عن حياتي في العالم العربي."[48].

تتمثّل هذه السّيرة الذّاتيّة عودة إلى الأصل من الخارج إلى الدّاخل إذ استطاع إدوارد سعيد أن يحقّق الحلم الفلسطيني بالعودة ولكنّها عودة عبر الكتابة وإعادة اكتشاف الذّات.

١- المرض وقلق الموت: الموت كما يرى الفيلسوف مارتن هيدجر (HIDIGER) "هو وحده الكفيل بالكشف عن طبيعة المستقبل، وهو تلك النهاية التي يستطيع الموجود البشري من خلالها أن يصبح كلا، وأن القلق هو الذي يكشف لنا عن طابع وجودنا باعتبارنا موجودات متناهية قد جُعلت للموت، وليس الإنسان هو الموجود الوحيد الذي يعرف أنه فان فحسب، بل إن الإنسان هو الموجود الوحيد الذي يدخل الموت في صميم كينونته"[49]

وإدوارد سعيد كتب سيرته الذاتية انطلاقا من هذه العلاقة بين الموت والقلق، يقول: "كتبت معظم هذا الكتاب خلال فترات من المرض أو العلاج، أحيانا في منزلي في نيويورك وأحيانا أخرى حين كنت أنعم بضيافة

أصدقاء أو مؤسّسات في فرنسا ومصر. بدأت العمل عليه في أيار 1994، خلال فترة نقاهة على أثر ثلاث وجبات أوّليّة من العلاج الكيميائي لمرض سرطان الدّم بعطف وصبر مبذولين بلا حساب... وخلال السّنوات الخمس الّتي استغرقها تأليف هذا الكتاب، تحمّل معي أفراد عائلتي مريم ووديع ونجلاء نوبات المرض والغيابات والعلاجات بالإضافة إلى تحمّلهم حالتي العامّة الصّعبة الاحتمال أصلا"[50]. فموضوع الموت نفسه ليس هو المسيطر على ذهن الكاتب بل القلق الذي يسببه لأفراد أسرته، خاصة أبناؤه الثلاثة.

ولكن ورغم ذلك فإن فكرة الموت القريب تبقى حاضرة في الذهن وإن حاول تناسيها كما يقول: "والآن تشاء مفارقة شيطانيّة أن أصاب بسرطان الدّم العنيد الغادر فأحاول طرده من ذهني كليّا على طريقة النّعامة، ساعيا بنسبة معقولة من النّجاح، إلى أن أعيش حياتي وفق نظامي الميقاتي، فإذا أنا أكدّ ويطاردني التأخّر وترزح عليّ وطأة المواعيد النّهائيّة، ويسيطر ذلك الإحساس بالإنجاز غير الكافي.. أجدني أتساءل في سرّي ما إذا كان نظام الواجبات والمواعيد النّهائيّة سوف ينقذني الآن، مع أنّي أدرك أنّ مرضي يزحف زحفا على نحو غير منظوّر.."[51]. هذا الإحساس بأن الموت يقترب جعل الكاتب يحس بأنه لم يحقق الأشياء التي كان يصبو إلى تحقيقها مما يجعل من الكتابة وسيلته الفضلى لتحقيق هذا الغرض، فيصبح فعل كتابة السيرة الذاتية فعل مواجهة للموت.

٢- فعل الكتابة ومقاومة الموت: إذا كان كاتب السّيرة الذّاتيّة يرغب في الانتصار على الموت من خلال توثيق حياته الماضية وإخراجها من الإهمال والنّسيان، فإن إدوارد سعيد يؤكّد فعلا أنّه استطاع أن يغلب الموت، والكتابة عن الذات ليست كالكتابة عن الآخر، فكاتب السيرة عندما يدوّن حياة شخصيّة أدبيّة أو فكريّة أو سياسيّة يقدّم الدّليل على أنّ ذكرى تلك الحياة الّتي عاشها قد استمرّت بعد فناء الجسد، أما كاتب السّيرة الذاتية وهو يكتب سيرته يظلّ منسجما انسجاما فكريّا كاملا إذ لا يعيش الإشكاليّة الزّمنيّة الّتي يتعرّض لها كاتب السّيرة بين حاضر الشخصية وماضيها، ذلك أنّ كاتب السّيرة الذّاتيّة وهو يكتب يظلّ يسبح عكس مجرى حياته إذ يعود إلى الماضي البعيد وأمواج الحاضر المتلاطمة تعترض سبيله في حين يظلّ كاتب السّيرة قادرا على ترتيب حياة صاحب السّيرة ويخضعها لمعايير موضوعيّة تفصل بين المراحل وتزيح المواجهة بين الماضي والحاضر.

يبين إدوارد سعيد الظروف الّتي أحاطت بكتابة هذه السّيرة الذّاتيّة وهي ظروف المرض الّذي لا أمل من الشّفاء منه وما تخلّلها من بعض الأعمال العاديّة الّتي تتقاطع مع كتابة السّيرة الذّاتيّة، قائلا: "هذه التّفاصيل مهمّة لأنّها الوسيلة الّتي أفسّر بها لنفسي وللقارئ مدى ارتباط زمن هذا الكتاب بزمن مرضي، بحقباته وطلعاته ونزلاته وتقلّباته كافّة... ولما كنت خلال أعمالي الأخرى كتابة المقالات وإلقاء المحاضرات والتّدريس والمهمّات الصّحفيّة أعبر المرض مؤقّتا تلك الأعمال، بما يشبه القسر بواسطة مواعيد التّسليم ودورات بدايات النّصوص ومتونها والنّهايات إذا أنا في هذه السّيرة، تجرفني فترات العلاج والإقامات في المستشفيات والألم الجسدي والكرب الذّهني وتتحكّم بكيفيّة الكتابة وموعدها ودوامها ومكانها.."[52]

في "خارج المكان" لإدوار سعيد، يؤدّي الاستحضار دورا يتعدّى ذلك الإحساس باللّذّة الفنيّة إلى ضرب من العلاج النّفسي سلّحه بقدرة على مقاومة المرض الّذي يستعصى الشفاء منه"لعبت ذاكرتي دورا حاسما في تمكيني من المقاومة خلال فترات المرض والعلاج والقلق الموهنة. ففي كلّ يوم تقريبا، وأيضا فيما أنا أؤلّف نصوصا أخرى، كانت مواعيدي مع هذه المخطوطة تمدّني بتماسك وانضباط ممتعين ومتطلّبين معا. ومع أنّ كتاباتي الأخرى وتدريسي أبعدتني كثيرا عن العوالم والتّجارب المختلفة الّتي ينطوي عليها هذا الكتاب. فالأكيد أنّ الذّاكرة تشتغل بطريقة أفضل وتجربة أكبر عندما لا تفرض عليها الأساليب أو النّشاطات المعدّة أصلا لتشغيلها"[53]

د الذات وثلاثية الألم والرحيل والضياع في"الخبز الحافي"لمحمد شكري:

سيرة محمد شكري "الخبز الحافي" تتحدث عن هجرة الطفل واسرته من الريف الى المدينة هروبا من المجاعة، وبحثا عن الخبز الكثير، ولكم اسرته لم تجد ما تحلم به، فخاب ظنها وهذا ما حفز الطفل على اقتحام عالم الكبار لاهثا وراء الطمأنينة المفتقدة.

امتهن الطفل حرفا وضيعة، فعمل خادما فبائع جرائد، ثم انتقل ليساعد امه في بيع الخضار ثم ماسح احذية، فحمالا فمهربا، متنقلا بين طنجة ووهران. كان يشفق على امه، ويكره اباه لانه قاس فظ يجبره على العمل للاستفادة من اجرته في اشباع نزواته الشخصية.

وهذا الربط بين الموت والفقر منذ البداية يوحي بأثرهما البالغ في سيرة حياة هذا الكاتب.

١ الذات والألم: يبدأ ألم الذات منذ مرحلة الطفولة، حيث يتعلم الطفل (البكاء) يقول: "أبكي موت خالي والأطفال من حولي يبكي بعضهم معي لم اعد ابكي فقط عندما يضربني احد او حين افقد شيئا، أرى الناس أيضا يبكون المجاعة في الريف، القحط والحرب" وهذا البكاء يرتبط بالموت، ولكنه يرتبط بالفقر الذي يبكي الفلاحين الفقراء.

إنّ الطفل لا يحس بمرارة الموت في هذه المرحلة، ولكنه يعلم أنه يسبب الألم، هذا الألم الذي سيتطور مع تطور الذات.

والألم الذي ترك أثره في حياة هذا الطفل كان سببه الأب الذي يقول عنه: "إنّ أبي وحش عندما يدخل لا حركة، لا كلمة إلاّ بإذنه... يضرب أمي بدون سبب أعرفه"[55]، ولكن الألم الأكبر الذي سببه الأب كان بسبب جريمته الشنيعة فقد قتل ابنه الأصغر فقط لأنه بكى الجوع: "أخي يبكي يتلوى، يبكي الخبز، يصغرني، أبكي معه، أراه يمشي إليه، الوحش يمشي إليه، الجنون في عينيه، لا أحد يقدر أن يمنعه، أستغيث في خيالي، وحش مجنون امنعوه، يلوي اللعين عنقه بعنف، أخي يتلوى الدم يتدفق من فمه"[56]، لقد قتل الأب الوحش فلذة كبده وجعل بينه وبين الكاتب هوّة كبيرة جعلت الابن يفكر في قتل أبيه: "إذا كان من تمنيت له الموت قبل الأوان فهو أبي، أكره أيضا الناس الذين يشبهون أبي، في الخيال لا أذكر كم مرة قتلته، لم يبق لي ألاّ أن أقتله في الواقع"[57].

إنّ هذه الأحاسيس المتناقضة في قلب هذا الفتى الصغير ستجعل من العلاقات الطبيعية بين أفراد الأسرة الواحدة تضمحل لتحل محلها أحاسيس جديدة، لذلك لن تكون الحياة طبيعية بعد الآن.

٢ الذات والرحيل: يمثّل الرحيل في حياة هذه الذات المتألمة سبا آخر للألم، فالرحلة الأولى في حياته كانت من الريف إلى المدينة بحثا عن الخبز وعن لقمة العيش، ومثلت في خيال الطفل الصغير الجنة الموعودة، ولكنها انتهت بخيبة أمل كبيرة: "في طنجة لم أر الخبز الكثير الذي وعدتني به أمي، الجوع أيضا في هذه المدينة، لكنه لم يكن جوعا قاتلا"[58].

لذلك كانت صور هذه الرحلة الراسخة في ذهنه والتي يتذكرها من حين لآخر مقززة: "في طريق رحلتنا مشيا على الأقدام رأينا جثث المواشي تحوم حولها الطيور السوداء والكلاب، روائح كريهة، أحشاء ممزقة، دود ودم وصديد"[59].

ولكنّ رحلة أخري في حياة هذا الطفل كان لها وقع أشد في نفسه لأنها أبعدته عن مصدر للحب والحنان كان بديلا للحنان الضائع في أسرته، فقد أُبعد عن امرأة كانت تحنو عليه وتطعمه رغم أنه حاول سرقة بيتها "قبل رحيلنا بيوم رأيت الفتاة التي حررتني من الحبس وأعطتني الخبز المعسّل، أخبرتها برحيلنا إلى تطوان، أخذتني إلى منزلها، أكلت الخبز الأسود بالعسل الدافيء والزبد، غسلت لي وجهي وأطرافي، كنت أخاها الأصغر، ابنها"[60]، وكأنها أم ثانية له، وكأنها وهي تغسل وجهه تطهره من آلامه، وتزرع في قلبه المليء بالغضب الحب والطمأنينة.

٣ الذات والضياع: إنّ الألم والاغتراب سببا إحساسا عميقا بالضياع لهذه الذات التائهة: "في يوم رحيلنا تذكرت قبر أخي، سيظل بلا سقي، بلا ريحان، بلا بناء، قبر أخي سيضيع كما تضيع الأشياء الصغيرة وسط الأشياء الكبيرة"[61]، فالأخ الأصغر كان يمثل البراءة المفقودة وسط هذا الألم متعدد الأوجه بين الجوع والفقر، وبين الأب الظالم والمجتمع.

لينتهي الكاتب في نهاية هذه السيرة الذاتية إلى الإعلان عن ضياع النفس "أخي صار ملاكا وأنا سأكون شيطانا، هذا لا ريب فيه، الصغار إذا ماتوا يصيرون ملائكة، والكبار شياطين، لقد فاتني أن أكون ملاكا"[62]، فلكي تصير ملاكا عليك أن تموت، وإذا عشت فمصيرك أن تغرق وسط الزحام.

الخاتمة:

إن تنوع الأشكال الأدبية وتعدد طرائق الخطاب السردي أدى إلى تنوع الموضوعات المطروحة وتشعبها كتشعب الحياة ذاتها، ولكن هذه الأنواع الأدبية على اختلاف طرائقها تجتمع في بوتقة واحدة، فكلها تسعى إلى فهم الذات ودورها في الحياة وذلك من خلال فعل الكتابة الذي يعتبر مترجما للأفكار والمشاعر، والنص الجميل الخالد هو الذي استطاع أن يصور هذه العلاقة الجدلية بين (الذات والكتابة).

ولعل فعل الكتابة الذي حقق هذه ذلك بجدارة هو السيرة الذاتية فارتباطها بالذات جلي من خلال الأنا الساردة التي تمثل الأنا الفاعلة في النص. فالذات – إذن - هي المدار الشمسي الذي تسبح في فلكه كل جزئيات السيرة الذاتية، وهي الجذر الموضوعاتي الذي تنمو وتتفرع عنه موضوعات متعددة تخرج عن نطاق تصوير الذات إلى تصوير علاقة الذات بالوجود.

والسير الذاتية التي درست في هذا البحث تحمل في طياتها نضجا فكريا واجتماعيا، كما تحمل فلسفة حياة هؤلاء الكتاب والمفكرين التي يريدون نقلها إلى الآخر بعد أن تحققت لهم الكينونة الذاتية الأكثر اكتمالا سواء في ذاتها أو في علاقتها بالوجود، وسواء في علاقتها بالدواخل النفسية أو بالعالم الخارجي. وقد خلصت الدراسة إلى أن:

الذات تظهر في النص وخارج النص عبر مجموعة من الاستراتيجيات النصية أولها (الراوي) وثانيها (الكاتب)، والرابط بينهما يكون عادة (الضمير أو اسم العلم) والسيرة الذاتية هي الهوية المتكاملة التي يبحث الكاتب عن تحقيقها في النهاية من خلال الجمع بين العناصر السابقة كلها، فالراوي هو الكاتب ولكن في زمنين مختلفين، والضمير هو الصورة الخفية لاسم العلم، والكل يمثل الذات.

وحضور الذات في السيرة الذاتية يتعدى مجرد الحديث عنها في مراحل متعاقبة من حياتها إلى تكوين تصور شامل عن الأنا في الماضي والذي يحمل شخصية منفصلة عن الذات الكاتبة على الأقل على المستوى الضمني.

والسيرة الذاتية، إضافة إلى أنها فعل كتابة، هي فعل إدراك للذات من خلالها يتعرف الكاتب على ذاته، ويبرزها من خلال جعلها بؤرة الخطاب والمدار الذي تدور حوله الأحداث والمحكيات ولا تظهر الشخوص النصية إلاّ من خلال ارتباطها بهذه الذات، أي أنها المتحكم في مصير الوجود النصي بكل تمفصلاته.

والملاحظ في السير العربية الحديثة والمعاصرة هو التركيز على مرحلة الطفولة، فرغم صعوبة استرجاع ذكريات تلك المرحلة إلاّ أن كل السير المدروسة عمل أصحابها على التركيز على هذه المرحلة معتمدين على التذكر أو على رواية الوالدين والأهل، ومنهم من لم يتعد هذه المرحلة إلاّ إلى الشباب الأول أمثال طه حسين، ولعل الاهتمام بهذه المرحلة يعود إلى ارتباطها –كما يرى علماء النفس- بتكوين شخصية الإنسان مستقبلا.

وإن كانت السيرة الذاتية هي رسم لعالم الطفولة الضائع، فإنها ليست حنينا إليه دائما فطه حسين يرفض هذه المرحلة ولا يتمنى أن يعيش أبناؤه مثلما عاش وأن يروا ما رأى في صباه، أما أحمد أمين فيحن إلى تلك المرحلة التي تميزت بالسعادة.

والسيرة الذاتية انبعاث متجدد للذات وتحد الموت، أي أن الكتابة السير ذاتية هي تعبير عن قلق وجودي هو الزوال أو الموت وهي الحقيقة التي تظهر أمام الذات ولكنها تتغاضى عنها وتحاول من خلال الكتابة السير ذاتية أن تلغي هذا الموت الذي يتربص بالذات، وأن تعطي لها من خلال الأحداث الماضية صورة متكاملة،

وهذا ما ظهر جليا في سيرة إدوارد سعيد "خارج المكان" فالموت يتربص بالذات في كل لحظة والمرض ينخر جسم الكاتب الذي لم يعد يقوى على المواجهة إلاّ بالقلم.

والسيرة الذاتية في الختام هي- كما يرى يحي إبراهيم عبد الدايم- (عملية تذكر رمزي) تمنح حياة الكاتب الماضية شكلا إبداعيا لا يتوقف عند سرد الأحداث سردا تعاقبيا، بل يتعداه إلى منح الذات في مراحلها المتعددة شخصية جديدة تتغير بتغير الوقائع، وتتطور بتطورها، وتنمو لتصبح ذاتا متكاملة

الإحالات:

(1)- ابن منظور : لسان العرب. دار صادر، بيروت، ط 3، 1994، مادة سير.

(2)- الفيروز أبادي : القاموس المحيط،، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 2، 1987، مادة سير.

(3)- عبد النور، جبور : المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، لبنان، ط 2، 1984، ص 143.

(4)- شرف، عبد العزيز : أدب السيرة الذاتية، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، مصر، 1992، ص 42.

(5)- محمد عبد الغني حسن: التراجم والسير: دار المعارف، القاهرة، ط 3(دون تاريخ)، ص 23

(**6**) **-** JEAN STAROBINSKI L'autobiographie, Gallimard , Paris 1970 p. 84**:**

(7)- محمّد الباردي:عندما تتكلّم الذّات السّيرة الذّاتيّة في الأدب العربيّ الحديث، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2005. ص 10

(8)- المرجع نفسه، الصفحة 11

(9)- إحسان عباس: فن السيرة، دار الثقافة، بيروت – لبنان، (د، ت)، ص 58

(10)- جورج ماي: "السّيرة الذّاتيّة، تعريب عبد الله صولة ومحمّد القاضي، بيت الحكمة 1992، ص 147

و ينظر: **1979** - Georges May, L autobiographie, P U F Paris

(11)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها

(12)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها

(13)- حسين خمري: فضاء المتخيل(مقاربات في الرواية)، منشورات الاختلاف(سلسلة كريتيكا) الجزائر، ط 1، 2002، ص 227-226

(14)- يحي إبراهيم عبد الدّائم: "التّرجمة الذّاتيّة"في الأدب العربي الحديث"دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، (دون تاريخ)، ص 79

-**15**))ANDRE LALANDE: Vocabulaire critique et technique de la philosophie PUF , v 162 , 1985. P 2.

-(**16**) PAUL FRAISE et JEAN PIAGET: traite de psychologie expérimentale VI la réception , PUF , 5 , 2e ed 1967 P 133

IbID. p 133- (**17**)

(18)- محمّد الباردي: عندما تتكلّم الذّات السّيرة الذّاتيّة في الأدب العربيّ الحديث، ص 112

(1**9**) - EDMOND HOSREL: idée directrice pour une phénoménologie traducteur Ricœur.Edition Gallimard. PARIS. P 131

(20)- عبد القادر الشاوي: الكتابة والوجود(السيرة الذاتية في المغرب)، ص 88

(21)- المرجع نفسه، الصفحة 89
(22)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها
(23)-المرجع نفسه، الصفحة 88
(24)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها
(25)- حسين خمري: فضاء المتخيل(مقاربات في الرواية)، 233.
(26)- يوسف مراد: مباديء علم النفس العام، دار المعارف، القاهرة، ط 2، 1853، ص 371
(27)- طه حسين: الأيّام، دار المعارف، القاهرة – مصر، ج 1، 1966، ص 19
(28)- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
(29)- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
(30)- المصدر نفسه، الصفحة 23.
(31)- المصدر نفسه، الصفحة 37.
(32)- يحي إبراهيم عبد الدّائم: "التّرجمة الذّاتيّة"في الأدب العربي الحديث"، ص 410.
(33)- طه حسين: المصدر السابق، ص144
(34)- المصدر نفسه، ج2، ص 130 – 131
(35)- يحي إبراهيم عبد الدّائم: "التّرجمة الذّاتيّة"في الأدب العربي الحديث"، ص 310
(36)- ميخائيل نعيمة: سبعون حكاية عمر، المرحلة الثالثة(1932 – 1952)، دار صادر للطباعة والنشر ط2، 1966، ص 60
(37)- المصدر نفسه، الصفحة 60-61.
(38)- يحي إبراهيم عبد الدّائم: "التّرجمة الذّاتيّة"في الأدب العربي الحديث"، ص 309
(39)- ميخائيل نعيمة: سبعون حكاية عمر المرحلة الأولى(1889 – 1911)، دار صادر للطباعة والنشر ط2، 1962، ص 250
(40)- المصدر نفسه، الصفحة 131
(41)- المصدر نفسه، الصفحة 161.
(42)- المصدر نفسه، الصفحة 158.
(43)- يحي إبراهيم عبد الدّائم: "التّرجمة الذّاتيّة" في الأدب العربي الحديث"، ص 317
(44)- ميخائيل نعيمة: سبعون حكاية عمر، المرحلة الثالثة(1932 – 1952)، ص 173
(45)- المصدر نفسه، الصفحة 86.
(46)- المصدر نفسه، الصفحة 107.
(47)- محمّد الباردي: عندما تتكلّم الذّات السّيرة الذّاتيّة في الأدب العربيّ الحديث، ص 108
(48)- إدوارد سعيد: خارج المكان، ترجمة: فواز طرابلسي-منشورات دار الآداب-بيروت-عام 2000- ص 19
(49)- زكريا إبراهيم: دراسات في الفلسفة المعاصرة، دار مصر للطباعة(د، ت)، ص 436
(50)- إدوارد سعيد: خارج المكان، ص 17.
(51)- المصدر نفسه، الصفحة 143
(52)- المصدر نفسه، الصفحة 33
(53)- المصدر نفسه، الصفحة 19
(54)- شكري، محمد : الخبز الحافي، دار الساقي، بيروت، ط 4، 1996، ص 9.

(55)- المصدر نفسه، الصفحة 11
(56)- المصدر نفسه، الصفحة 12
(57)- المصدر نفسه، الصفحة 89
(58)- المصدر نفسه، الصفحة 10
(59)- المصدر نفسه، الصفحة 10
(60)- المصدر نفسه، الصفحة 27
(61)- المصدر نفسه، الصفحة 27
(62)- المصدر نفسه، الصفحة 228